

هل يعتزل الداعية أو المصلح؟



الخميس 30 يناير 2020 11:21 م
بقلم: عامر سماح

هل يجوز للداعية أن «يتقاعد» عن مهام الدعوة؟ وهل يحق للمصلح أو «الثوري» أن «يعتزل» أو «يعتذر» عن مواصلة الثورة؟ هذان السؤالان طرحا هذا الأسبوع كثيرا، واستدعيا -من ثم- الصفات الواجب توافرها في الداعية أو المصلح، وشروط هذا «الاعتزال» أو «الاعتذار» -إن كانا يجوزان.

لو نظرت في سيرة الأنبياء والرسل جميعًا -عليهم السلام- ما وجدت ذكرًا لمقصود هاتين الكلمتين أو ما يدل عليهما؛ سوى في الاشتقاق اللغوي المخالف للمعنى الذي نحن بصدده: (وأعتزلكم وما تدعون، فلما اعتزلهم وما يعبدون، وإذ اعتزلموهم..)-إلا ما جرى من نبي الله يونس -عليه السلام- الذي ضاق يومًا من عدم استجابة قومه له فخرج مغاضبًا؛ فكان جزاؤه -كما حكى القرآن الكريم- التقام الحوت له، ووقوعه أسيرًا لظلمات ثلاث، وما تلا ذلك من توبة الله عليه بعد ندمه واستغفاره، وقد اتبعه من عصوه بالأمس فكانوا: (مائة ألف أو يزيدون)، وذلك أكبر عدد ورد في كتاب الله الكريم..

وما خلا هذه الحادثة التي نستدعي ما قيل فيها من ذكر لله عند كل ضائقة -فلن تجد عندهم سوى الصبر على المكاره، وطول التمس، والثبات على المبدأ، ومواصلة (مباريات) الدعوة والإصلاح حتى شهادة هذا النبي أو ذاك الرسول أو وفاته، لا يقعدهم مرض، ولا يضيئهم جهاد، بل ظلوا جميعًا -عليهم السلام- كواكب درية ينبرون طريق الضلال ويبددون غيش الحيرة، وينقلون الحبارى إلى سبل الهداية والرشاد.

ولو شئت التفصيل فانظر في سيرة أولى العزم من الرسل، الخمسة الكبار، الذين لم يذوقوا يومًا طعم الراحة، ولم يشبعوا من طعام، ولم يتسلموا من أذى أقوامهم، وقد امتد بأحدهم العمر بين قومه الضالين إلى نحو ألف عام وهم يصدون عن سبيل الله، فما آمن معه إلا قليل، ورغم ذلك لم يعتذر لله عن هذه المهمة التي أصننته، وعن تلك الرسالة التي أرهقته، بل ظل في رباط -هو والقله الذين معه- حتى جاء أمر الله فنجاهم الجبار وأهلك الظالمين.

ونبينا -صلى الله عليه وسلم- سيد الرسل، كان على موعد مع هذه الآلام حتى أتاه اليقين -جاءه الموت- وكان في بداية دعوته لم يدر أن هذه الآلام سوف تلحقه على تلك الصورة التي تطيح بالغرف القبلي وأخلاق الرجال؛ إذ لما زار ورقة هو وزوجه بعد أول نزول للروح الأمين أخبره الرجل أن قومه مخرجوه من بلده، فقال متعجبًا: أومخرجي هم؟ قال ورقة: ما جاء أحدٌ بمثل ما جئت به إلا عُودى.. وقد كانت تلك أخف الأضرار التي لحقت به فلم نر منه -صلى الله عليه وسلم- سوى الصبر والثبات، والأمل والاستبشار، وتحوله بكليته إلى الله، فقام حتى تورمت قدماه، ودعا حتى بان إبطاه، وألح على ربه حتى قال له الصديق: حسبك يا نبي الله لقد ألححت على ربك.

كان بإمكانه -صلى الله عليه وسلم- الاعتزال، إن كان يجوز الاعتزال، يوم فتح مكة، بعدما عاد إلى وطنه وقد مكته الله من أهله ودانت له قبائله، لكنه لم يفعل، بل لم يبق به إلا أيامًا معدودات، عاد بعدها ليعيش عامين اثنين هما أصعب أيام دعوته. وكان بإمكانه -صلى الله عليه وسلم- الاعتذار، إن كان يجوز الاعتذار، يوم عاد من الطائف وقد أرهقته سفرته وبلغ القلب الحجرة حتى غارت عليه السماء؛ فما زاد على أن قال: «إن لم يكن بك غضبٌ عليّ فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي»..

وإذا كان أهل الباطل يتواصون بباطلهم وبالصبر عليه (وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْنُوا وَاصِبُوا عَلَيَّ آهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ) [ص: 6]؛ فالأولى بأهل الحق أن يفعلوا ذلك وزيادة، وألا يصيبهم بأس أو ملل، وليعلموا أن الله لا يعجل بعجلة أحدهم، وأن هناك ناموسًا عظيمًا يدبر الكون، يشرع لهم ولغيرهم، وأن قصاراهم البلاغ، أما الهدى والضلال، والزيف والرشاد فمن الله، وهم ماجورون على كل حال ما داموا على الحق قائمين.. يقول الشهيد سيد قطب: «هم -أي الدعاة- أجراء عند الله، أنما وحيثما وكيفما أرادهم أن يعملوا عملوا وقبضوا الأجر المعلوم، وليس عليهم أن تتجه الدعوة إلى أي مصير؛ فذلك شأن صاحب الأمر، ولا شأن الأجير».

إن الإيمان بالمبدأ، والإخلاص له يدفعان إلى الصبر والثبات عليه، والتضحية في سبيله، وتحمل الأذى والمحن، وعدم الصدمة والانتكاس، وتصير مهمتهم على التأبيد، لا تردد حيالها ولا ارتياح، بل عزم وإقدام، متجربين عن الأهواء، لا تلهيهم الأمانى والرغبات (فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) [هود: 36]، (قَلَّا تَذَهَبَ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) [فاطر: 8].

يجوز للفارس أن يستريح، لكنها الهدنة التي تعقبها جولات، وساعة القلب التي تتلوها ساعات الجهاد، رافعًا شعار: (فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) [البقرة: 132]، أما الاعتزال الدائم فهو حَوْرٌ واستسلام، واعتراف بالهزيمة، وتنكب طريق الدعاة المخلصين الذين محصتهم المحن وتالت عليهم النكبات؛ فما لانت لهم قناة، ولا انخفض لهم جناح، وماتوا وهم وقوف، أعزة ميامين، يترضى عنهم من مر بهم، ويستغفر لهم من جاء بعدهم، وصدق فيهم قول

المعصوم: «لا تزال طائفة من امتي قائمة بامر الله، لا يضرهم من خذلهم او خالفهم، حتى ياتي امر الله وهم ظاهرون على الناس..».

لا ينتظر الداعية الواعى أو المصلح الحضيف راحة، ما دام اختار لنفسه هذا الطريق واقتنع به، ولا يقنط لندرة الأتباع وقلّة المستجيبين؛ إذ هو ليس عمله.. سُئل الإمام أحمد: متى الراحة؟ قال: «يوم أن تضع قدمك في الجنة». وقال الإمام علي: «لا تستوحشوا طريق الحق لقلّة رواه». وقد جاء في تفسير قوله تعالى (قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا) [يونس: 89]؛ كان بينهما أربعون سنة.

<https://www.ikhwanonline.com/article/238352>